الربّ يحبّكم أكثر بكثيرٍ ممّا تحبّون أنفسكم

الأب أثناسيوس السيمونوبيتريتي

أحزن كثيرًا عندما أقابل أحيانًا خلال سرّ الاعتراف أشخاصًا أمضوا عقودًا في الكنيسة ولكنَّ نموَّهم الروحيَّ قد توقَّف. ولا يعود ذلك إلى عدم امتلاكهم فرصةً للنموّ الروحيّ وحفظ وصايا ربّنا، الذي هو تقديسنا الكامل، بل يعود إلى تراخيهم الروحيّ ويأسهم. يتوقّفون عن النموّ روحيًّا مثل طاحونة مياهٍ لا تدور، مع أنّه عليها أن تدور طول الوقت. يؤلمني أن أرى كيف يسلك المسيحيّون بعد أن يعترفوا، وكأنّهم لم يعترفوا قطّ، يبتعدون عن حامل الإنجيل والصليب[1] وكأنّ شيئًا لم يكُن. يبقون على حالهم؛ وبمجرّد عودتهم من الكنيسة إلى المنزل، يتشاجرون مع زوجاتهم ويتجادلون مع أولادهم. أين ذهبَت نعمة المناولة المقدّسة؟ هل زالت؟ إنّها موجودة، لكنّنا نتعامل مع الأسرار المقدّسة على نحوٍ غير لائق؛ ونتيجةً لذلك، نعيش في حالةٍ من الفصام الروحيّ: نفكّر في شيء، لكنّنا نفعل شيئًا آخر؛ نريد أن نفعل أمرًا، لكنّنا لا نستطيع فعله. وهكذا يزداد يأسُنا، ونَصِلُ إلى النقطة الحاسمة ونقول: "ماذا استطعتُ أن أحقِّق في حياتي؟ إنّني أستسلم".

نيأس، ونتوقّف عن النموّ، ولا نتقدّم روحيًّا. وغالبًا ما تُجرّبنا أفكارٌ "توَشوِش" لنا قائلةً: "ضَعِ المسيح موضعَ اختبار! أيّ صلاحٍ فعله لك؟ أريد العودة إلى الحياة الدنيويّة!". وبالفعل، نعود.

فلماذا لا ينجح الناس في الحياة الروحيّة؟ أوّلًا، نحن من نسل آدم القديم. من خلال سقوط جدَّينا الأوَّلَين، أصبحنا جميعًا نرتدي جسدَ الفساد والموت. وكما يقول القدّيس بولس الرسول: "ولكنّي أرى ناموسًا آخر في أعضائي، يحاربُ ناموسَ ذهني" (رومية 7: 23). نتألّم ونَصِلُ إلى حدّ القول مع القدّيس بولس الرسول: "ويحي أنا الإنسانُ الشقيّ! مَن يُنقذني من جسدِ هذا الموت؟" (رومية 7: 24). إذا قلنا هذا بتواضعٍ فإنّنا سنخلص؛ وإذا قلناه بيأسٍ فإنّنا سنهلك. هذه اللحظة تكون بالغة الأهمية تمامًا عندما نكون في حالة يأس. فاليأس يمكنه أن يقودنا إلى برَكةٍ عظيمة، لكنّه يستطيع أن يقودنا أيضًا إلى أعماق الجحيم.

[1] Analogion: الخشبة التي تستعمل لحمل الأيقونات أو الإنجيل أو الكتب. في سرّ الاعتراف، يوضع عليها الإنجيل والصليب (المترجم).

تذكّروا ما قاله الربّ للقدّيس سلوان الآثوسيّ الذي كان قد أمضى اثنَي عشر عامًا في الصلاة المستمرّة، والنوم ساعةً واحدةً فقط في اليوم، لكنّه وقع في اليأس لأنّه أخذ يرى شياطين أمامه فيما كان يصلّي ويصنع المطانيّات، وقد أرادت هذه تشتيته عن الصلاة. امتلأ يأسًا وقال: "يا ربّ، أنتَ لا تلين!". في هذه اللحظة بالذات، ظهر الربُّ للقدّيس سلوان وقال له: "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس!".

أعتقد أنّ هذه الرسالة هي أكثر رسالةٍ معاصرةٍ يمكن أن يمنحنا إيّاها المسيح. فنحن نغلي بالخطايا والسقطات والأهواء، لكنّنا قد بورِكنا أيضًا بفرصةِ التخلُّص من كلّ عبوديّة آدم القديم. بوسعنا أن نخلع الثَّوب القديم الذي لآدم القديم، ونرتدي ثوبًا جديدًا. وهذا يتطلّب بعض الجهاد، الأمر الذي أريد أن أتحدّث عنه.

عندما سُئِلَ القدّيس سيسوي كيف يمكننا التخلُّص من الأهواء، أجاب قائلًا: "لكي تتخلّص الأفعى من جِلدها القديم، يجب أن تمرّ من خلال صدعٍ ضيّق". يستحيل فعلُ ذلك بطريقةٍ أخرى - هذا هو الناموس الروحيّ. لإزالة ثوب الفساد القديم، علينا أن نمرّ عبر فوهة النُّسك.

غير أنّكم سترُدّون على هذا قائلين: "أبانا، تستطيعون أن تفعلوا ذلك في الأديرة، لأنّكم رهبانٌ وقد قطعتُم نذور العفّة والطاعة والفقر. أنتم تسهرون، أنتم هكذا؛ أمَّا نحن فمختلفون، نحن نعيش في العالم. فكيف يمكننا أن نجاهد؟".

تذكّروا ما قاله القدّيس لونجينوس لراهبٍ آخر: "أعطِ دمًا وخُذ روحًا!". ويقول بولس الرسول القولَ عينه في رسالته إلى العبرانيّين: "وبدونِ سفكِ دمٍ لا تحصلُ مغفرةٌ" (عبرانيّين 9: 22).

لقد توقّف سفكُ دماء الحيوانات في العهد الجديد، وحلّ الجوهر محلّ النموذج. أعطى الظلُّ مكانه للنعمة - يجب أن نسفك دمًا من نوعٍ آخر، أي أن نسفك أنفسنا ورغباتنا (روحيًّا). هذه أصعب ذبيحة، وفيها تقديسنا. بطبيعة الحال، ننفر أحيانًا من كلمة "نسك" نفسها ونقول: "أيّ نسك؟ ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ ما هو مقياسي؟ لا أستطيع الصوم ولا السهر؛ لا أستطيع فعل أيّ شيء!". وهكذا، نفشل في إدراك قدراتنا، فنسقط في اليأس ونتخلّى عن كلّ شيء.

بهذه الطريقة، نفشل في التماس عذرٍ لأنفسنا، وليس ذلك فحسب، بل ولا نلتمس عذرًا لجسد الكنيسة أيضًا، الذي يتوقّع منّا القداسة. ولا نبرّر تجسُّد ربّنا نفسه، بل ننكره وجوديًّا وأنطولوجيًّا. فلماذا أصبح المسيح إنسانًا؟ لأنّنا لم نتمكّن من إزالة ثوب الجِلد هذا بأنفسنا، فلَبِسَ ذاك الذي بلا خطيئة، ثوبَ جِلدنا ليُساعدنا. يشبه الأمر شيخًا لا يستطيع المشي بمفرده، فيتمسّك بذراع ابنته أو ابنه أو أيّ شخصٍ آخر يستطيع أن يمشي ويقوده في الطريق. يحصل الأمر عينه مع المسيح، هو الذي أخذ بذراعنا واتّخذ الطبيعة البشريّة كلّها لكي يقودنا إلى أبيه السماويّ. يجب أن نبحث عن طريق نسكنا الشخصيّ. يقول الرسول بولس: "وكما قسَمَ الله لكلّ واحدٍ، كما دعا الربّ كلّ واحدٍ، هكذا لِيَسلُكْ" (1 كورنثوس 7: 17). هذه هي الحقيقة.

من الأسهل لنا، نحن الذين في الأديرة، أن نتقدّم ونتغلّب على أهوائنا، إذ لا ظروف خارجيّة تعيقنا وتقيّدنا. ففي العالم عقباتٌ عديدة، بينما الحياة الرهبانيّة سهلة. أنا متأكّدٌ من هذا، والرهبان يقولون ذلك. الحياة في العالم صعبةٌ وتتطلّب تضحيةً أكبر. نحن لا نحتاج إلى التضحية بالكثير – بل بإرادتنا فقط. أمّا أنتم الذين في العالم، فيجب أن تتخلّوا عن الكثير من الأمور من أجل الجهاد! لكن حتّى أصغر عملٍ تقومون به، ومحبّة الله التي تُعبّرون عنها، سيَقبلُها المسيح نظير ألفٍ من أعمالنا. سيُعادل عملٌ واحدٌ من أعمالكم ألفًا من أعمالنا. ويمكنكم أن تخلُصوا بهذا العمل الواحد فقط! يمكنكم دخول السماء بدينارٍ واحدٍ فقط، وبآلاف الملايين من الدينارات يمكنكم أن تُتركوا خارج بوّابتها. لماذا؟ لأنّ الربّ سيطلب الكثير ممّن يعرف الكثير.

ثمّة شروطٌ معيّنةٌ في مسألة التخلُّص من أثواب الجِلد، أوّلها الاسترشاد لدى أبٍ روحيّ. إذا لم يكن لدينا سائقٌ متمرّسٌ خلف مقوَدِ نفسنا، إذا لم يكن لدينا سائقٌ في سيّارتنا ليوجّهنا، فإنّنا سنُدمّر أنفسنا. يجب ألّا نقوم بأدنى حركةٍ في حياتنا الروحيّة باستقلاليّة، بسبب خطر الوقوع في الخديعة. أنتم تعلمون أنّ الرهبان والآباء العظماء كانوا متواضعين، وبعد معاينة رؤى عظيمة كانوا يلجؤون دائمًا إلى الآباء الساكنين بجوارهم لطلب النُّصح، حتّى لو كان الأب أدنى الرهبان. وكان الواحد منهم يقول: "أخي، رأيتُ رؤيا، رأيتُ ملائكة، رأيتُ هذا القدّيس وذاك، أو والدة الإله الفائقة القداسة. ما رأيكَ في ذلك؟ هل هي رؤيا أو خديعة روحيّة؟".

لم يثقوا قطُّ في قدراتهم وقداستهم، بل عدّوا أنفسهم غير مستحقّين مُطلقًا لمثل هذه الرؤى. ونحن الذين نمتلك الكثير من الخطايا، عندما تغشى أعيننا الروحيّة بسبب "القيح" الذي يملؤها من جرّاء الأهواء، فلن

يمكننا استعادة بصرنا ما لم نلجأ إلى طبيبٍ روحيّ لكي يَصِفَ لنا علاجًا أو نظّاراتٍ مناسبة. وإلّا فإنّنا سنهلك روحيًّا. ولكن يجب أن ننتبه جدًّا هنا. يجب أن نبحث عن طبيبٍ روحيّ مناسبٍ لنا، لأنّ "شهادات" الأطبّاء تختلف مستوياتها الروحيّة. فكما أنّنا نحاول أن نجد طبيب عائلةٍ جيّدًا لنعهد إليه بحياتنا وبعلاج أمراضنا، كذلك يجب علينا أيضًا أن نَجِدَ أبًا روحيًّا جيّدًا.

قد تسألونني: "أين يمكن للمرء أن يَجِدَ مثلَ هذا الأب الروحيّ؟". نشكر الله، لدينا بعضٌ منهم هنا. أعرف الكثير من الرهبان والآباء الذين يمتلكون التمييز، واللُّطف، والمحبّة، والتفهُّم، ومخافة الله، والذين يمكنهم إرشادكم. أولئك الذين ليس لديهم أبٌ روحيٌّ سيجدون حتمًا طبيبًا روحيًّا مثل الذي ذكرناه. لماذا؟ لأنّه من دون أبٍ روحيّ سينتهي بكم الأمر عند الطبيب النفسيّ. لا يوجد قرارٌ أوسط: إما أبٌ روحيّ أو طبيبٌ نفسيّ.

سيقودكم الضغط الذي تواجهونه في حياتكم اليوميّة إلى مواقف يائسةٍ لن تتمكّنوا من التعامل معها بمفردكم. لا تؤذوا نفوسكم، لا تدمّروا أنفسكم، بل تواضعوا أمام أبيكم الروحيّ وقولوا له: "أبي، لقد أخطأت!".

مهما كان عدد الأدوية التي وصفها لكم أطبّاؤكم، لا يمكنها مطلقًا أن تمنحكم نعمة بطرشيل الكاهن فيما تقفون بتواضعٍ تحته. عظيمةٌ هي النعمة التي منحنا إيّاها الربّ، ويجب أن نشكره عليها ونمجّده.

هل قابلتُم رجلًا واحدًا موهوبًا روحيًّا يعاني مشكلاتٍ نفسيّة؟ إذا وجدتُم شخصًا كهذا، فعرِّفوني به لأنّي لم أقابل مثله قطّ. هل قابلتُم أحدًا يصلّي ولديه توتّر؟ هل قابلتُم أحدًا يتناول القربان المقدّس باستعدادٍ ولديه مشكلات؟ إنّ المناولة تُسهّل أيضًا التغلّب على المشكلات الصحّيّة. هل قابلتُم أحدًا يقرأ المزامير ويعتريه الغضب؟ أو شخصًا يقرأ الكتاب المقدّس واتُّهم زورًا؟ لماذا؟ لأنّنا من خلال هذه الوسائل كلّها نقتبل الروح القدس.

إنّ الشخص الذي يعيش في حياته الحاليّة، وبأقصى قدراته، وفقًا لتعليم المسيح هو إنسانٌ كامل. يقول لنا المسيح: "كونوا كاملين كما أنّ أباكم الذي في السماوات هو كامل" (متّى 5: 48). كلّما فتحنا قلوبنا أكثر أمام المسيح واستقبلناه مخلّصًا شخصيًّا لنا وفاديًا، اقتربنا منه أكثر، وأصبحنا في شركةٍ معه، وصِرنا على مثال المسيح ومستحقّين الله. حينئذٍ، نقضي حياتنا كلّها بإرشادِ الروح القدس، عندما تسعى كلماتنا وأفكارنا وقلوبنا نحو الله. إلّا أنّنا لن ننال هذا كلّه من دون مرشدٍ روحيٍّ مختبِر.

قد يجادل بعضهم قائلين: "كيف يمكن للأب الروحيّ أن يساعدنا أكثر من الطبيب النفسيّ؟ يمكننا أن نتناول مهدّئًا وننام". أوافق؛ تناولوا الحبوب التي يصفها لك طبيبكم النفسيّ، ولكن جرّبوا أيضًا العلاج الذي تقدّمه كنيستنا. أنا لستُ ضدّ الأطبّاء النفسيّين، لا سيّما إذا كانوا يتّقون الله، فعندها سيتمكّنون من مساعدة نفوسنا المضطربة مساعدةً كبيرة. غير أنّ الطبيب النفسيّ الذي لا يؤمن بالله ويخافه، والذي لا يؤمن بوجود روحٍ بشريّة، يُشبه وحشًا مع وقف التنفيذ. اقتربوا من المسيح، صلّوا أكثر واعترفوا أكثر، قِفوا بتواضعٍ تحت البطرشيل وسترَون كيف ستختفي الهموم والقلق من حياتكم. سترَون كيف سيفتح الربُّ لكم الطريقَ وسط تحدّياتِ حياتكم.

قد يساعدنا الطبيب النفسيّ ضمن حدود بقائنا البيولوجيّ. وبفضل مضادّات الاكتئاب، يمكننا أن نشعر بالرضى مدّة ستّين أو سبعين أو ثمانين عامًا. ولكن ماذا سيحدث لنفوسنا بعد ذلك؟ يجب أن نفكّر دائمًا في الحياة بعد الموت. يجب أن يكون هدفنا بلوغ الأبديّة.

قد يقول أحدكم لي: "يا أبانا، ما أجملَ حديثك عن ذلك كلّه! لكنّنا غالبًا ما ننال إرثًا صعبًا. كان أبي مدمنًا على الكحول وولِدتُ لأكون مدمنًا على الكحول. وكانت أمّي عصبيّةً وورثتُ عيوبها ونواقصها".

سأجيب عن ذلك بما يلي: دعونا نقبل حالتنا بتواضع. كيف حالكَ، يا أخي؟ يمكنك أن ترى بعينٍ واحدةٍ فقط، لقد فقدتَ بصركَ تمامًا. من الجيّد أنّكَ لا تستطيع الرؤية وتتوق إلى رؤية الشمس. المسيح هو نور العالم؛ هو للعميان وللّذين يرَون. تستطيع الأعين التي منحنا إيّاها الربّ أن تساعدنا في إيجاد الخلاص أو أن تلقي بنا في محيط الهلاك. دعونا جميعًا نقبل حالتنا الحقيقيّة؛ من الصعب فعل ذلك طبعًا. أُلاحظُ خلال سرّ الاعتراف كيف يُعرِبُ بعض الناس عن رغبتهم في التطوُّر روحيًّا، لكنَّ الإرث الذي نالوه من آبائهم والشعور الخانق في داخل نفوسهم يظلّان قابعَين هناك.

كيف لهذين أن يختفيا؟ ذوقوا المسيح وانظروا ما ستصبحون عليه. نحن نرى هذا في الأديرة. هل تعتقدون أنّ كلّ مَن يأتون إلى الأديرة ملائكة؟ لا أحد يأتي إلى الدير كالملاك. نحن جميعًا خطأة، ولهذا نذهب إلى الدير، لكي نخلص ونشفى. يذهب كلّ أنواع الناس إلى الدير. إذًا، أولئك الذين يعيشون حياةً روحيّةً حقيقيّةً يتحوّلون، وكأنّ أجنحةً تنبت لهم، مثل الطيور، وسرعان ما يبدؤون في الطيران.

دعونا نقبل بتواضعٍ ما أعطانا الربُّ، ولا نحسد الآخرين مطلقًا قائلين: "لماذا جاري أذكى منّي؟". ربّما لأنّكَ لو امتلكتَ ذكاء هذا الشخص، لتحوّلتَ إلى هتلر جديد. وبدلًا من أن تكون صالحًا، ستؤذي نفسكَ والآخرين.

"لماذا لا أملك الكثير من المال؟". لأنّه لو أعطاكَ الربُّ الكثير من المال، لتركتَ الله ورفضته ودمّرتَ نفسكَ.

يجب أن نتخلّص من هذه التساؤلات كلّها، فهي لا تتّفق مع انتمائنا المسيحيّ. وعلينا أن نُمجّد الله بتواضعٍ على ما أعطى لكلّ واحدٍ منا، وأن نسأله أن يعطينا القوّة لنحمل صليبنا الشخصيّ.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Hieromonk Athanasios of Simonopetra (2025). “The Lord Loves You Far More Than You Love Yourself”, Part 1. *OrthoChristian*.